قصة الاساطيل

الاسلامية

لمحمد عبد الغني حسن

وقع لي أخيراً كتاب في الانجليزية عنوانه « البحارة الانجليز في القرن السادس عشر » لمؤلفه جايمس فرود أستاذ التاريخ بجامعة اكسفورد (English Seamen in the sixteenth century By J. A. Froude) فذكرني بالأساطيل الاسلامية يوم أن كانت ترفرف عليها راية الاسلام فتمخر العباب وتحمل الانتاج للتجارة أو لغزو في سبيل الله أو لفتح بلاد جديدة

وبالطبع لم تحملني الذكريات البعيدة السعيدة على عقد موازنة أو عمل مقارنة ولكنها حملتني على أن أرجع الى أسفار التاريخ الاسلامي وأمهات كتبه أستخرج منها الاحداث وانتزع منها الوقائع البحرية الاسلامية فأصادفها أمامي كثيرة وأجدها في سهولة ويسر فلا أتكلف لها عناء في البحث أو تنقيباً في بطون الكتب . ولكني أجدها واضحة المعالم مرفوعة الاعلام فأود أن أعرضها على القراء لعلها تذكرهم بمجد درس ولكن الآمال معقودة على عودته ، وماضٍ ذهب ولكن النفوس متطلعة الى رجعته

* * *

وقصة الاساطيل الاسلامية قصة شائقة ممتعة يذكرها المؤرخون المسلمون على سبيل التدوين ، ويعرفها المنصفون من غير المسلمين فيسجلونها فيما يسجلون من مفاخر العرب . وينظر اليها بعض ذوي الاغراض منهم بالنظر الشزر ، فيقربون حاجباً من حاجب ويحاولون انكار فضلها وهو باد لكل عين بصيرة

والمنصفون من الغربيين كثيرون بحمد الله لأنهم ينشدون الحق ويبتغون وجه العلم فلا تعميهم غاية ، ولا يطمس على قلوبهم تحيز ، ولا يختم على سمعهم ولا على أبصارهم هوى جائر وغرض مائل

وقد كان جحود الغرب للشرق وانكار بعض المتعصبين منه فضائله راجعاً الى عوامل

دينية وأخرى سياسية . ولا شك ان الحروب كانت أهم أسباب الجفوة واتساع الشقة ولكن النهضة الاوربية قللت من هذا الجفاء البغيض فقد استقامت على نفسها بحضارة العرب . ولهذا لم يجد المنصفون من الوفاء لها أن يرموها أو يغضوا من شأنها . الا أن نفراً منهم ظل التعصب يأكل قلوبهم والغرض يعمي عيونهم ، فلم يستطيعوا أن ينكروا مدنية الاسلام جملة لانهم لا يقدرون على ذلك ، ولكنهم هونوا من أمرها ، ونقصوا من قدرها ، ورموها بأنها مدنية أولية وحضارة بدائية . وظهر ذلك فيما كتبوا وألفوا . ومن المؤسف ان يكون جون كارنوك من هؤلاء المغرضين الذين رموا الحضارة الاسلامية بالجهل بأساليب الملاحة وطرق البحار وفن الاساطيل

الا انه مما يسر العربي أن يجد أسماء كثيرة أنصفت العرب وعرضت حضارتهم أحسن عرض وقدرتها أجمل تقدير

ومن هؤلاء سيديو المؤرخ وجوستاف لوبون وأرنست باكر وجب ومرجوليوث ولاينبول ولاين وأرنولد وبريجز

ولقد كان جوستاف لوبون منصفاً الانصاف كله وصريحاً الصراحة كلها حينما ذكر في كتابه حضارة العرب « أن بعض مفكري اوربا يجدون من الغضاضة بل من الذل أن يعترفوا بان اوربا المسيحية مدينة للعرب بخروجها من ظلمات الجهل »

* ***

وكلة اسطول ليست عربية الأصل ولكنها يونانية معربة ، ولا نعرف بالضبط الوقت الذي استعملت فيه تلك اللفظة ، ولا أول من استعملها ولكنها على كل حال لم تكن زمن الخلفاء الراشدين الذي استعملت فيه كلة مراكب التي تساوي بالضبط كلة أسطول ويظهر أن اللفظة اليونانية دخلت العربية بعد اتصال العرب بالروم واستعملت في كتب المؤرخين المسلمين وزاد استعمالها عند المتأخرين منهم . والمقريزي يذكرها في مواضع كثيرة من كتابه

وعلى الرغم من ضخامة هذه الكلمة فقد استعملت في الشعر وخاصة عند ابن هانيء الاندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي ووصف أساطيله كما استعملها الشاعر الايادي

ومن العجب ان عمر بن الخطاب الناتج العظيم لم يحب ركوب البحر ولم يشجع عليه بل على الضد من ذلك صرف المسلمين عنه . وكتابه الى معاوية يؤيد هذا ، فقد أقسم بالله الذي بعث محمداً بالحق لا يحمل فيه مسلماً أبداً . وذلك حينما اقترح معاوية وألح في الاقتراح على عمر بركوب البحر وغزو الروم في عمق

وعجيب جداً أن يكون هذا موقف عمر من البحر وهو الذي دوخ البلاد فتحاً وغزواً . ولعله أراد أن يركز قوة المسلمين في البر حتى يتهيأ لهم مع الزمن ركوب البحر

ويعد الخليفة عثمان بن عفان أول حاكم مسلم أنشأ في عهده صناعة الأساطيل العربية . والفضل في ذلك لمعاوية بن أبي سفيان الذي لم ينثن عن اطالبة بركوب البحر ، والذي يعد أول خائض غمرات البحار . وهنا نذكر اسم عبد الله بن قيس الفزاري الذي استعمل أميراً على البحر ، فغزا أكثر من خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة .

***

لم يكن للعرب أسطول قبل عهد عثمان ، فكيف أتيح لهم أن يدعوا بحر الروم بهذه السرعة الفائقة ؟ ومن أين لهم بصناعة الأساطيل ولم يكن لهم بها سابقة عهد . وليس في العالم حينئذ مصانع كبرى تمد الدول بحاجتها من السفن كما تفعل المصانع اليوم . وليس من المعقول أن يعدم الروم بالسفن ولو بحجة استعمالها في التجارة . لأن العداء بين الاثنين مستحكم ، وبلاد الروم تنهار بلداً أثر بلد . والمسلمون يعصون فيهم الغارة ؟

والجواب عن ذلك سهل بسيط . فالارادة القوية لا تقف دونها أهوال . وقد انعقدت ارادة المسلمين بالبحر ليجندوا فيه متسعاً للغزو ومضرباً للجيوب . فكيف يمنعهم من ذلك حداثة عهدهم بالصناعة ، وعدم رسوخ قدمهم في الملاحة ؟

***

وهنا تتجلى العبقرية العربية ، فتستحيل الاسكندرية الى دار عظيمة لصناعة السفن . ويستخدم فيها العمال المصريون ممن حذقوا الصنعة على أيدي الروم . وتأخذ السفن العربية أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص في وقعة الاسكندرية . وتجيد الايدي العربية القلفطة وربط الالواح وإحكام الدسر وأقامة الدقل واصالة الشراع وهي التي كانت بالامس القريب تنصب الخيام وتقيم الاوتاد وتضرب القباب وتشد الرحال وتحزم الأكوار وتحدو المطايا وقد سالت الأباطح بأعناقها

وهذا الانتقال السريع من حال الى حال هو مرضع الاعجاب بأجدادنا العرب ، فانهم لم يقعدوا في الصحراء ، ولم يقنطوا على أنفسهم في رمال الجزيرة ولم يقولوا : ارادتنا الطبيعة ان نكون اهل البداء في مضارب البيداء بل قالوا نريد أن نكون اهل اللواء في غمرات الماء فكان لهم ما أرادوا

ولعلك تتصوّر الاسكندرية مني حينذاك وقد علا فيها طرق الازامبل وقرع المطارق وصوت المناشير ودق المسامير .... وفي لحظة وجيزة من الزمن تخرج مصانع الاسكندرية مائتي سفينة وتنزل الى البحر لاول عهدها به ، وعنيها عبدالله بن ابي السرح اميراً ، ثم يخرج بها في غزوة اخرى فيلاقي الروم في الف مركب ، فأبلى المسلمون بلاءً حسناً . واذا هم في البحر كما هم في البر : شدة بأس وقوة مراس وصبراً على المكاره واذا النصر يلازمهم في أول معركة بحرية وهي المعروفة بوقعة « ذات الصواري » التي سميت بذلك لكثرة اجتماع المراكب فيها وعليها صواريها المرفوعة

ويزداد شعور المسلمين بحاجتهم الى المراكب في عهد بني امية ، وينشأ منهم جيل تمرّس بالبحار ومرن على ركوبها . فيبعث عبد الملك بن مروان الى عامله على أفريقية حسان بن النعمان يأمره بانشاء دار لصناعة الأساطيل في تونس على غرار ما حدث في مصر

ثم يأتي عبيد الله بن الحبحاب والياً على افريقية سنة ١١٤ هـ فيوسع دار الصناعة التي أنشأها حسان بتونس وينزو صقلية سنة ١٢٢ هـ

***

ويظهر أن صناعة الاساطيل الاسلامية استقرت على شاطىء افريقية الشمالية مدة ازدهار الحضارة العربية ولم يهتم خلفاء بني العباس بهذه الصناعة إلاّ حين نزل الروم دمياط من الديار المصرية ، فقد كان المتوكل خليفة ، وعنبسة بن اسحق والياً على مصر . وكان الروم واقفين للعرب بالمرصاد . فانتهزوا يوم الوقوف بعرفات سنة ٢٣٨ هـ وغزوا دمياط وقتلوا وسبوا من المسلمين . ووصلوا الى تنيس . فاهتمّ المتوكل العباسي بصناعة الاساطيل التي كانت قد أصابها الركود زمناً

ويعد هذا أول انتعاش للبحرية العربية . فقد وضعت قوانين للبحارة ، ورتبت لهم الارزاق ، وانتخب لهم القواد العارفون بالمحاربة ، ولم تعد البحرية الاسلامية مبداناً لكل نازل وحرفة لكل محترف . ولكنها صارت فناً يختار له المتمرّسون من أهل الدربة ، ويتنحّى عنهُ الجهلاء الجبناء

وتهافت الشبان على الاشتراك في البحرية وسعوا اليها بكل الوسائل حتى يكونوا من رجالها فقد كان من الشرف الأسمى أن ينتسب المرء الى الاسطول الذي كان لرجاله مكانة وحرمة

وكانت الاسكندرية وتونس قاعدتين مهمتين من قواعد الاسطول الاسلامي . تخرج منهما السفن للغزو ، وتوقع بملوك الافرنج وتتخن في ممالكهم كما يقول ابن خلدون

ولا ينسى فضل الاسكندرية في وقعة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ ، ولا في رد الروم عن دمياط سنة ٢٣٨ هـ . كما لا ينسى فضل تونس في غزو صقلية . فمها كانت تخرج السفن من حين الى حين الى ان استقرّ فيها المسلمون سنة ٢١٢ هـ على يد أسد بن الفرات موفداً من قبل زيادة الله بن الأغلب

ويروي المقريزي في خططه ان أساطيل الاسلام كانت كثيرة الهجوم على بلاد العدو . فانها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية ، وتلك اشارة على ايجازها تدل على فضل الشام في الغزو البحري . فقد كانت « صور » هي الثغر الحربي الاسلامي المواجه لبيزنطة . ويذكر اليعقوبي في جغرافيته (ان بها داراً للصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة)

وليس من شك في أن الاسطول الشامي في القرن الرابع الهجري كان يفوق الاسطول الفاطمي في شمالي أفريقية ويزيد عليه في الكفاية والعدد . وعلى الرغم من أن الاسطول الفاطمي غزا جنوبي فرنسا ومدينة جنوة وبيزا ، فان الاسطول الشامي استطاع هزيمة الاسطول المصري في مستهل القرن الذي نحن بصدد الحديث عنه . فانهزمت ثمانون سفينة فاطمية أمام خمس وعشرين سفينة شامية في سنة ٣٠١ هـ

***

ولم يقل اهتمام المتوكل بالأسطول المصري والبحرية المصرية عن اهتمام أبيه المعتصم بالاسطول الشامي . فللمعتصم فضل تحصين المراكية التي كانت أهم ثغر تجاري في الشام . وله فضل الاهتمام ببناء طرابلس الشام كما يذكر ذلك ابن خرداذبة

وعلى كل حال لا ينسى فضل الفاطميين على الاسطول المصري وعنايتهم به . فلقد واصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط وسيروها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وأكثروا من بناء دور لصناعة الاساطيل

وكانت الاساطيل الاسلامية كغيرها من الاساطيل الغربية حينذاك تسير بالشراع والمجاديف ولا يدخل الفولاذ في بنائها . فمن أين لهم بالخشب اللازم لهياكل السفن وصواريها

لقد كانت البندقية تمد العرب به ولكن الامبراطور الروماني احتجّ على دوق البندقية فتوقف البنادقة عن بيع الخشب للعرب ، الا الاخشاب التي لا تصلح لبناء السفن

وقد أثرت تلك الحركة في الانتاج البحري عند المسلمين ، وزاد الطين بلة ذلك الحريق

الهائل الذي وقع في اسطول الفاطميين في زمن العزيز الفاطمي واعترف صناع الروم بأنهم هم الذين أحدثوه

وحدثت أزمة في صناعة الأساطيل ظهر أثرها فيما صنعهُ الوزير عيسى بن سطورس في مصر من خشب السقائف ودور الحكومة لأعداد أسطول آخر

***

ولقد فطن صلاح الدين الايوبي الى أهمية الغابات والحراج في صناعة الأساطيل فراقبها مراقبة دقيقة وعين الحراس عليها حتى لا يستعمل الناس خشبها في خاص شؤونهم . واستنبت نوعاً من شجر السنط فوزع العود منهُ بمائة دينار . والحق أن الأسطول الاسلامي بلغ في عهد صلاح الدين شأناً عظيماً . وهي منزلة كان المسلمون في حاجة ملحَّة اليها لاستيلاء الصليبيين على اكثر السواحل الشامية . وفي ذلك العصر بلغت السفن حدًّا عظيماً من ضخامة الهيكل وارتفاع الجُدُر

ويذكر المؤرخ الانكليزي جون كارنوك أن قلب الأسد ملك انكلترا لما استولى على قبرص وغادرها الى الشام في مائتي سفينة لاق في طريقه سفينة ضخمة للمسلمين تحمل القاً وخمسمائة بحار . وهو عدد لم يشهد الفرنجة مثله في زمانهم. وهذه الرواية تدل على مبلغ ما وصلت اليه صناعة الأساطيل الاسلامية من تقدم

وبعد عصر صلاح الدين قلت العناية بالأسطول الى أن جاء الملك الظاهر في منتصف القرن السابع فأعاد العناية بصناعة السفن . وكان يشرف عليها بنفسه ويرى بنفسه ما تحتاج اليه من ضروب الاصلاح . ولكن سمعة الاساطيل الاسلامية في عصره لم تبلغ ما كانت عليه في عصور التوسع والفتح . وكانت اساليب المسلمين في وقائعهم البحرية كثيرة الشبه بما يحدث الآن في عرض البحار مع ملاحظة الفرق في الصناعة والسرعة والاختراع والتقدم العلمي . فقد عرف العرب وسائل النعمية على العدو وتضليله بالألوان والشارات والملابس وغيرها . ويُرى ابن حسون المصري يغزو قبرص في القرن السابع فيرفع على مراكبه الصلبان حتى يظنها المسيحيون من سفنهم فتدخل الحيلة عليهم

وفي الحروب الصليبية نجد قائداً بحريًّا عربيًّا يقود سفينة عليها ٧٠٠ مقاتل ويستميت في القتال حتى اذا لم يبق في النجاح أمل وعلم انهُ مأخوذ لا محالة هو ورجاله أحدث في السفينة خرقاً وآثر أن يذهب هو وسفينته ورجاله وسلاحه الى أعماق اليم وأغوار البحر على أن يقعوا فريسة في يد الأعداء .